مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.274/269

المقاربة السيميائية لثقافة الخطاب البصري الإعلامي

The semiotic approach to the culture of visual media discourse

د بكاي نورالهدى
houdhoude19@gmail.com
جامعة زيان عاشور الجلفة
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2022/06/01 تاريخ القبول:2022/09/20 تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص:
نعيش اليوم وسط فضاء من الصور حتى وصل لأن يكون المتخيل شيئا حقيقيا واقعيا، والصّورة تجاوزت اللّغة نفسها، يفهمها المثقف مثلما يفهمها الأمي، ويتلقاها الوطني كما يتلقاها الأجنبي، تعبر القارات دون تأشيرة معقّدة. حتى صار موضوع الخطاب البصري في عصرنا هذا جزء من الإستراتيجية الإعلامية العامة للتواصل الاجتماعي، فهو من الخطابات التي تندرج ضمن الممارسات الثقافية اليومية، فاكتسى الطابع الثقافي بمكوناته الأيقونية والتداولية واللغوية، فهو خطاب بصناعة إعلامية، لذلك حظي باهتمام كبير في مختلف المجتمعات وخصوصاً المتطورة منها، لما يتميز به من قدرة عالية على بلورة الرأي وتشكيل الوعي بالتأثير على الثقافة وتوجيهها في أبعادها المختلفة الأخلاقية والفلسفية وبما أن السيميائيات نظرية علميّة معاصرة تبحث في كل ما يتعلق بالعلامة والأنساق الدلالية التواصلية، وما ينتج عنها من دلالات للقبض عن المعنى، فهي أنسب المناهج التحليلية لدراسة الصورة في بعدها الدلالي والثقافي، وبناء على ذلك سنطرح المفاهيم النظرية السيميائية المتعلقة بالأبعاد الدلالية والثقافية للخطاب البصري.
كلمات مفتاحية: الصورة، السيميائيات، الإعلام،الثقافة.

Abstract:
Today we live in the midst of a space of images until the imagined becomes something real and realistic, and the image transcends the language itself, the intellectual understands it as the illiterate understands it, and the patriot receives it as the foreigner receives it, it crosses the continents without a complex visa. Until the topic of visual discourse in our time has become part of the general media strategy for social communication, it is one of the discourses that fall within the daily cultural practices, so it has acquired a cultural character with its iconic, deliberative and linguistic components. It is characterized by its high ability to crystallize opinion and form awareness by influencing culture and directing it in its various ethical and philosophical dimensions. Since semiotics is a contemporary scientific theory that studies everything related to sign and semantic communicative patterns, and the resulting semantics to capture the meaning, it is the most appropriate method Analytical study of the image in its semantic and cultural dimension, and accordingly we will present the semiotic theoretical concepts related to the semantic and cultural dimensions of visual discourse.
Keywords: *Image, semiotics, media, culture.*

1- مقدمة:

تحتل الصورة مكانة عالية وحسّاسة من بداية العصر الحديث إلى واقع الحياة اليوم، مما لفت إليها عدّة أبحاث متعدّدة بالدراسة النظرية والتطبيقية، فاهتم بها الكثير من الفلاسفة والمفكرين وفي معظم الاختصاصات التي تعتبر عنصرا أساسيا لمواضيعها، فقد نالت حيزا في دروس علم النفس والفلسفة أكثر من غيرهم ضمن أبحاث مجال الإدراك، أو التفكير بالصور...، فحسب الأبحاث والدراسات الحديثة للتفكير والتربية للعالم الأمريكي جيروم برونر، أنّ تسعين 90% من مدخلاتنا الحسيّة هي مدخلات بصرية، ولهذا فقد احتلت الصورة دورا في مختلف العمليات الذهنية. "فإذا كانت الفلسفة قد بدأت منذ وقت ليس بالطويل في الانفتاح على مجالات المتخيل سواء بجوانبه الذهنية أو بجوانبه المادية، فإنّنا لا نزال نحمل ذكرى على ذلك التعامل التحقيري الذي خصّ به فلاسفة ومفكرون، من أفلاطون إلى جون بول سارتر قضايا الخيال والمتخيل والصورة، بحيث كاد أن يرمى بها إلى مفاوز العدم، إنّنا ندين في الحقيقة بهذا الاهتمام الفلسفي بالصورة والمتخيل لتلامذة هوسرل سواء في الحقل المعرفي الفرنسي أو الألماني، الشيء الذي غدا معه الحديث عن الصورة والتخيل جزءا من التفكير في قضايا الإدراك والفكر والإبداع ".

وللمميزات التي تتمتع بها الصورة جعلت البحث في دلالتها الصّورة "مُغرٍ جدا نتيجة بلاغتها وتنوع أدواتها، وتعدّد قنوات الخطاب فيها فتُشرك البصر، السّمع، الشّم، الحركة ... لتشكل جملة الحواس التي تظهر جمالية الخطاب فيها، وهذا ما جعلها وميّزها بالخطاب الديناميكي الجميل نظراً للحضور الدّلالي المتعدّد فيها" [1]، إلى جانب كونها تثير دراسة المعارف المتصلة بها بهدف إدراك كينونتها، انطلاقا بخاصية الأيقونية التي تمكنها من مماثلة الأشياء والمواضيع في الواقع، فيتركّب نظام السنّن الذي يسمح بمعرفتها وقراءتها، وتحريك سيرورة التأويل لبناء دلالة مضامينها. والسّيميائيات هي العلم الذي يرصد تشكل الأنساق الدلالية ونمط إنتاجها وطرق اشتغالها مما جعلها الأنسب لمقاربة حيثياتها في مختلف الخطابات والمواضيع" وأول سيميولوجية للصورة (بارث 1961- 1946) تتكلّم عن الصورة، بوصفها شيئا ما تحيل عليه، وتكون بالتالي مرتبطة بدلالته من خلال علاقة غير اعتباطية "1

2- المقاربة السيميائية:

أمّا إذا تحدّثنا عن ظهور المنهج السيميائي واتجاهاته كما هو اليوم، فإنّه ظهر مع الستينات من القرن العشرين، ضمن معطيات اللسانيات العامة في التحليل النصي."ففي سنة 1967م، افتتحت مجلة الإعلام في العلوم الاجتماعية، ركنا حول البحوث السيميائية منفتحا على كل التيارات التي بدأت تفرض نفسها آنذاك،وقد كان رومان جاكوبسون Roman Jackobson، في السنة اللاحقة، وراء فكرة خلق جمعية دولية للسيميائية في إطار ملتقى نظم بـ كازميرز Kazimierz ببولونيا، تحت إشراف اليونسكو هذا وقد اختفى ركن السيميائية ابتداء من 1969، فهرس الإعلام في العلوم الاجتماعية ليتحول في دار النشر نفسها إلى مجلة دولية، ذات نفوذ علمي قوي موسومة بـ: سيميوتيكا Semiotica، أضحت تشكل منبرا في الفلسفة السيميائية، للتعبير عن الممارسات الفكرية الوافدة من جميع أقطار العالم."1 وعملت على معالجة جل القضايا السيميائية التي شغلت تلك الفترة (من إشكالية المصطلح إلى تباين المفاهيم)، منطلقين من كونها دراسة كيفية صناعة المعنى وتمثيل الواقع، وخاصّة أنّها وُلدت في مهدين متباعدين جغرافيا وابستيمولوجيا، "ومعنى كل ذلك أنّ السيميائية معطى ثقافي أمريكي-بالدرجة الأولى -، يحيل على مفاهيم منطقية وفلسفية وغير لغوية...، في حين أنّ السيميولوجية معطى ثقافي أوروبي أساسا، هو أدنى إلى العلامات اللغوية (والمجال الألسني عموما) منه إلى علامات أخرى."2

"وعليه فإنّ السيميولوجيا نظام جديد من الوقائع، باعتبار النظام اللغوي نسقا تعبيريا تواصليا، مما يكسبه طابعا رمزيا وإشاريا، لا يعدو أن يكون واحدا من جملة أنواع من الأنساق الرمزية أو الإشارية التي تستعمل في التعبير والتواصل، لذلك كانت اللغة من السيميولوجيا"3. وهذا ما أثار الباحث البنيوي رولان بارث فيما بعد رغم تأثره بالمفاهيم التي طرحها دو سوسير، إلاّ أنّه خالفه في تحديد العلاقة بين اللّسانيات والسيميولوجيا فعكسها، معتبرا الأولى أصلا وأكثر امتدادا من الثانية الفرع، معتبرا أنّ كل عملية سيميولوجية تمر بالنسق اللغوي، بينما يرى الباحث الدّانماركي-لويس همسيلف Louis Hjemslev أنّ الغرض من التحليل السّيميولوجي هو مجموعة التقنيات والخطوات المستخدمة لوصف وتحليل شيء باعتبار له دلالة في حدّ ذاته وبإقامته علاقات مع أطراف أخرى من جهة ثانية"4، وفيما وراء كل الانفعالات

الشخصية التي بدأت تنطفئ بين الفرقاء، فإنّ التطورات الرّاهنة للسيميائية الأوربية...، تسلّم بأنّ المفاهيم الهيمسليفية...، تمثّل القاعدة الإيبستيمولوجية للنظرية السيميائية، وبشكل عام نموذجا مرجعيا لكلّ العلوم الاجتماعية"5.

إنّ العلامة هي أساس البحث السيميائي فمفهومها هو مرتكز نظرية المعنى، فالتفكير يتم بالعلامات وتداولها في الواقع بتفاعل مستمر، ومن المعروف أنّ السيميولوجيا هي ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات سواء أكانت لغوية أم أيقونية أم حركية6. وبما أنّها علم العلامات والأنظمة التي تتحكم في سيرورتها وانتظامها داخل النسق الدلالي، فيجدر دراستها في المجال المعرفي الحديث. و تتميّز العلامة بنوعيها- اللغوية وغير اللغوية-أساساً بطابعها التّداولي وذلك لعلاقتها بمستعمليها وقدرتها على التجدّد والانبعاث داخل الحياة الاجتماعيّة، التي تحدّد وظيفتها واستعمالاتها حسب موقع ظهورها، فتتوضح قيمتها الإجرائيّة والتأويلية ممّا يفتح المجال أمام عمليات التأويل المختلفة.

ممّا ذكرناه من تعريفات وأصول لهذا العلم، نجد أنّ موضوعه العام والأساسي هو العلامة سواء كانت لغوية أو غير لغوية، من حيث طبيعتها والكشف عن القوانين المادية والنفسية التي تحكمها، وهذا ما يطرحه الدكتور أحمد يوسف في تساؤله حول موضوع السيميائيات ليبقي مجال البحث فيها واسعا وخصبا لعدّة فروع معرفية تأخذ منها وتعطيها على حسب الحاجة المعرفيّة لكلّ طرف."هل يتمثل المفهوم الأساس للسيميائيات في العلامة أم في الدلالات المفتوحة (semiosis)؟ أم في الأنساق السيميائية الدالة أم في التدليل signifiance أم في نظرية الخطاب أم في نظرية معرفية نقدية gnosologie أم في الإبستيمولوجيا بوصفها علم العلم؟7، كما يرى رولان بارث في مؤلفه-درس السيميولوجيا- أنّ الموضوعات المفضلة لها هي التي تعتمد على الخيال في إنتاج علامات أعمالها مثل الحكايات والصوّر، والتعابير واللّهجات والأهواء، أي ذات البنية غير واضحة الحقيقة وتتمتع في ذات الوقت بمظهر الاحتمال وعدم اليقين.

3- السيميائيات وعلوم الإعلام والاتصال:

إنّ الإعلام والاتصال واقع نعيشه غصبا عنّا، وإن لم نقل أنّه العجلة الكبرى التي تقود العالم نحو الوجهة التي يريدها أصحاب السلطة والنفوذ. ولحمولته الرمزية المليئة بالدلالات الواضحة والمشفرة كان الأكثر ارتباطا بالدّرس السيميائي."ولعلّ أهم شيء أو دليل يربطنا بالسيميولوجيا هو العلاقات الوثيقة بينها وبين علوم الإعلام والاتصال، فالحديث عن اللّغة الإعلامية ومعانيها والأفكار وحواشيها والمحتويات الإعلاميّة وقراءة ما بين السطور، وفك رموز التشفير وجعل الاتصال الاجتماعي أكثر وضوحا"8، هو ما جعله يستفيد من السيميائيات، فتفرع عنها دراسات مهمة في هذا المجال.

ويعتبر التحليل السيميولوجي منهجا أساسيا غايته الأولى هي النقد Critique القائم على التوغل العميق في مضامين الرسالة أو الخطاب الإعلامي"9، بالإضافة إلى "أن البنى الدلالية تتجلى- أي تتبدى- لنا أثناء عملية الإدراك في التواصل. فالتواصل يجمع شروط تجليها، إذ يشتبك الدال مع المدلول في فعل التواصل، في التواصل- الحدث"10.

كما علينا أن نشير إلى دور ثورة الاتصالات والإعلام في تطور علم السيميائيات في العقدين الأخيرين، لاسيما في مجال السمعي والبصري، التي كان لها الأثر الكبير في سرعة تنامي وتقدم هذا العلم. والسيميائيات حسب بويسنس، تعرّف باعتبارها "دراسة طرق التواصل، أي دراسة الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير والمعترف بها تلك الصفة من قبل الشخص الذي نتوخى التأثير عليه. بل إنّ السيميولوجيا، كما يقول بريتو، ينبغي عليها أن تهتم فيما يرى بويسنس بالوقائع القابلة للإدراك والمرتبطة بحالات للوعي والمنتجة بقصد التعريف بحالات الوعي هاته"11. وبالتالي هي أنجع الحقول المعرفية للإهتمام ودراسة جل ما ينتج عن شبكة الإعلام والاتصال من رموز وعلاقات بحاجة إلى التفكيك والتوضيح، للقبض على المقاصد من كل هذه الرسائل التي تغزو أيامنا عبر مسامعنا وأبصارنا أكثر فأكثر، لأنّها حسب دعاة التوجه التواصلي هي "دراسة الإجراءات التّواصلية، أي الوسائل المستعملة للتأثير في الآخر والمنظور إليها بهذه الصّفة من طرف من نريد التأثير فيه"12.

فتعمل على إعداد النماذج المناسبة لشرح وتحليل العمليات الاتصالية المعقدة أو الصعبة أو الغامضة بطريقة مبسطة فهي توجّه الباحث إلى النقاط الأساسية لعملية الاتصال فتساهم في عملية التنبؤ بالنتائج أو بمسار الأحداث فيه وهذا الأمر يساعد في عملية وضع فرضيات الدلالية المناسبة. "ويرى بارث أنّ أهم الأنظمة (الدلائلية)، هي تلك التابعة لإجتماعيات أنواع التواصل الجماهيرية "13 لأنّ "دلائلية التواصل الجماهيري تهتم بتحليل عناصر عملية التواصل الجماهيري، كيفما كان شكل ودعامة الرسالة، كالروايات البوليسية والأغاني والأفلام التلفزيونية والصّحافة وتعد أعمال مارشال ماك لوهان

مثالا"14، وسيميولوجيا التواصل هي التي تمدها بالإجراءات والوسائل المناسبة لتحليل ووصف كافة أشكال الخطابات بتنوع علاماتها من اللسانية إلى غير اللسانية، كما أنّه "يشار إلى الاستعمال غير المتناهي لعناصر متناهية في الحديث عن وسائل الاتصال عامّة بمصطلح 'التدبير السيميائي'"15.

والخطاب البصري في التلفزيون بنسقيه اللغوي والأيقوني لغة تواصلية تحمل جملة من الدلالات الجمالية والثقافية، وحين أبدعها المرسل (المنتج/الباث) كان يسعى نحو التأثير في المتلقي (المشاهد) المحمل بثقافة معينة ونفسيّة محدّدة، وتجذبه عوالم معينة، لذلك تحاول الخطابات البصرية بلغتها وصورها استدراجه للقبول بمضمون الرسالة والرضا. وبما أنّ الصورة مركّب معقّد موجّهة لغرض محدّد نحو متلقي لها، فإنّها بنية اتصالية وتواصلية لتوفرها على عناصر التواصل، فهي صُنعت بالأساس لتعمل على حمل رسالة من باث (مرسل) إلى جمهور (مرسل إليه) مرورا بقناة ضمن سياق متعارف عليه، ومن معرفة ماهية التواصل وعناصره، نرى أنّه ينبغي توفر هاته الملكات لنجاح العملية التواصلية المضمرة في بنية الخطاب البصري. ويمكن استخدم نماذج الاتصال والتواصل في عملية تحليل الصورة.

4- البعد الثقافي للصورة:

ذكرنا سابقا أنّ الصورة لعبت دورا مهما في عملية التواصل، وهذا ما جعلها وسيلة أساسية في نقل الثقافة، لاسيما إذا كانت هذه الأخيرة هي كل ما يبقى للإنسان بعد غياب الكثير من أشيائه، فمميزات الصورة هي ما أعطاها القدرة على المرور إلى الذاكرة الإنسانية بسهولة وتبقى أطول مدة، فنلاحظ مثلا عند قراءتنا لكتاب ما ننسى أغلبه، إلا أنّه من الصعب نسيان صورة أو مشهدا بصريا، خاصة ما تثير إعجابنا ودهشتنا بما تتضمنه من جاذبية وقوّة تعبير، وفي مجال التواصل نجدها قد تفوقت على معظم بقية وسائله، عندما تجاوزت عامل السِّن، بقراءتها وإدراكها من كل المستويات العمرية وكذلك التفاوت الثقافي والفكري. وفي هذا الصّدد نرى أنّ ثقافة الصورة في المجتمعات العربية اليوم أخذت حيزها في السياق المجتمعي العام، والتواصل هو من جملة المفاهيم التي تنتجها الثقافة، والتي يصعب الفصل بينهما في نفس الوقت.

إن مصطلح **الثقافة البصرية** يحوي بين جوانبه الكثير من الأشكال التي تمتد من الفنون الجميلة إلى الأفلام السينمائية الشعبية وبرامج التلفزيون والإعلانات، وكذلك البيانات البصرية الموجودة في مجالات قد لا يميل البعض إلى التفكير فيها على أنّها ثقافية، ونقصد بذلك مجالات العلوم الطبيعية والفنون والطب، تمثيلا لا حصرا. "فالنظرة العلمية هي أيضا نظرة تعتمد على الثقافة، مثلها فى ذلك أيضا مثل أنماط النظر أو الرؤية الثقافية الأخرى فى مجالات الفنون المتنوعة"16.

والصورة بآلياتها التعبيرية من أشكال وألوان وغيرها وبأنواعها، هى ذات أبعاد أنتروبولوجيّة وثقافيّة، على صلة بمدركات ومعارف المشاهد المقصود وخلفيته الحضاريّة واحتياجاته النفسيّة والاستهلاكيّة، بالرغم من ظاهرها الذى يوحى بالبراءة الزائفة، فنسى " أنّ صورة الواقع هى غير الواقع فى الصورة. وأنّ هذا الأخير لا يعدو فى الحقيقة، أن يكون مجرد نتاج اختيارات تقنية معروفة لأداء دلالة محدّدة، تماما كما أشارت لذلك، بحق، مارتين جولى قائلة: 'كلّ هذه الاختيارات، وكل هذه المناورات تثبت أنّنا نبني الصورة، وبالتالي دلالتها'. حقيقة يصعب فهمها ما لم نتمكن من مشاهدة الصورة في ذاتها مجردة عما تمثله."17

كما أنّ الصورة في جانب منها ترتبط بدرجة كبيرة بالثقافة الشعبية وبعصر ما بعد الحداثة، فتتأثر بهما وينعكس هذا في تشكيلها واختيار عناصرها، وفي نفس الوقت هي تؤثر فيهما بالانفعالات التي تحدثها في المتلقي، و" تشتمل الثقافة البصرية الخاصة بفترة معيّنة، كالفترة الحالية مثلا، على مجموعة قابلة للتحديد من الموضوعات والأنشطة وبين الاستهلاك والإنتاج للتمثيلات المعرفية (الرمزية) التي تدور حولها."18

فبات من الضروري معاملة الصورة على أنّها وسيلة من وسائل الثقافة، فنعطي الأهمية لهذا الموضوع، ونركز مع هذا الكم الهائل الذي يحاصرنا ويصل إلى مجتمعاتنا من مجتمعات أجنبية مختلفة الثقافة والمعتقد، فالخطابات البصرية هي رسائل مضمنة مجموعة من المقاصد الخفيّة ومشفّرة، بعكس ما يظهر عليها من عفويّة وشفافيّة، فالصورة علامة قويّة التأثير لأنّها لا تحتاج إلى قواعد لفهمها والتقاطها، فهي تعتمد على البصر فقط، فيراها الأُمّي والمتعلم بنفس الطريقة، إلاّ أنّ تأويلها يختلف باختلاف المتلقي-كما سبق ذكره -، وفي هذا يرى ميشيل فوكو أنّه " ليس هناك هروب من إمبراطورية النظرة

المحدقة الحالية. وليس هناك من بديل حميم مغاير"19، فنحن نجدها في واجهتنا وعلينا مواجهتها، بما تمليه علينا ثقافتنا ومتطلبات الجماعة التي ننتمي إليها ونؤمن بمبادئها وقيمها الاجتماعية والفكرية والإنسانية.
والثقافة كما قال فردريك جيمسون: لم تعد مجرد مسألة تتعلق بقراءة كتاب جيد في كل شيء، أو القيام برحلة سياحية، بل أصبحت هي العنصر الحاسم في مجتمع الاستهلاك نفسه، ذلك لأنّه لم يسبق في تاريخ البشرية أن كان هناك مجتمع مشبع بالعلامات والرسائل مثل مجتمعنا هذا الذي نعيشه الآن. وبشكل عام-كما يقول كيلنر- فإنّ المناخ الثقافي الذي يتمثل في وسائل الإعلام الجماهيرية، والإعلان، وتكنولوجيا المعلومات والاتصال، له دور مباشر في الإنتاج والإدارة الثقافية، وكذلك في التنشئة الاجتماعية، والتربية والتعليم، والتبادل الثقافي، والمتعة وقضاء وقت الفراغ أيضا20.
فيرى الدكتور صبري منصور "أنّ النص البصري في فن ما بعد الحداثة استكمالا لمسيرة الحرية الخلاصة والمبدعة لفناني الغرب، فلم تختلف معالمه الرئيسية اختلافا جذريا عن تجارب سابقة في فن الحداثة، وإن كان قد تمّ الامتداد بها إلى آفاق أرحب وأكثر جرأة."21 ممّا جعل الخضوع للمقاربة السيميائية أصبح ضرورة ملحة لأنّ المجتمع والثقافة اليوم حسب بارث يتعايشان مع الأبعاد الثقافية والرمزية الإيديولوجية بشكل كبير دون رقابة، فبالتالي من المهم توضيح القيم الدلالية وكشف المعنى المضمر في الصورة وغير المرئي.

5- النزعة الأيقونية Iconoclatrie:

الصورة اليوم لغة من لغات الحوار فهي خطاب حر يجسّد نوع من الديمقراطية، ودليل على الانفتاح الثقافي بين المجتمعات، فهي وسيلة ناقلة للثقافة، حيث "يبدأ بها الخطاب، ويكتمل هذا الخطاب مع عمليات التأويل الذي هو خطاب منحاز بالضرورة، فيقبل المتلقي ما يوافق أنساقه المضمرة ويعارض ما يخالف ما في ضميره من ثقافة مترسخة. وخطاب الصورة هو خطاب واقعي وكاشف نسقي بما إنه مجاز كلي وتورية ثقافية وليست بلاغية."22 و هذا ما يوضحه تعريف عبد الله الغذامي للصورة بقوله: "الصورة ثقافة وفكر وإنتاج اقتصادي وتكنولوجي، وليست مجرد متعة أو محاكاة فنية، وهي لغة عصرية يشترط فيها تطابق القول مع الفعل، وتمثل الحقيقة التكنولوجية بما أنّ الصورة علامة تكنولوجية ومؤشر إنتاجي ومنطق مستقبلي"23.
وبسبب طبيعة الصورة فإنها تنشأ علاقة أو ترابط عقلي وانفعالي بين الخطابات البصرية والمشاهد (المتلقي) الذي يتلقاها، مثال ذلك الإحساس الداخلي الخاص بالمتلقي عند تعرضه لأعمال فنية وجمالية أو مشاهد درامية وغيرها مما يتلقاه، فتأثر عليه تأثيرا مميزا، والذي يختلف باختلاف معطيات الصورة من علامات (الفرح، البهجة، الخوف، المتعة، الأمل، المعرفة، التخيل، ...) وغيرها من المشاعر الخاصة بالإنسان عموما المولّدة، والتي تخلق في ذهن المتلقي هي الأخرى أفكارا ولغة داخلية في ذهنه تكون بمثابة **الأيقونية Iconicity**، والتي "تشير إلى حضور التفكير بالصور الخاصة بشيء معين وكل شيء في الحياة خاصة الفنون، بما في ذلك الموسيقى والشعر وفنون الأداء(في المسرح والسينما والموسيقى والغناء والرقص والأوبرا والباليه...إلخ) يشتمل على خاصيّة الحواريّة البصرية، فالفنون في جوهرها هي صور تستدعي صورا تكون بدورها قادرة على إثارة النشاط الأيقوني أو الحواري البصري في عقل المتلقي. إنّ الأعمال الفنيّة تعمل-هكذا-على غرس الصور ونموها وإثمارها في عقول المتلقين، وتعد أشكال التفكير بالصور الطالعة بفعل عمليات الإنبات والرعاية هي الأساس الذي يتعرف الأفراد من خلاله على الأعمال الفنيّة ويتذوقونها"24.
إنّ **الحوارية البصرية** هي ما يطلق على الأيقونية لا تعني الصور المدركة، إلا أنها تستثير هذه الصور في ذهن المتلقي لها من المبدعين والمتذوقين من صور وأفكار ومشاعر وذكريات ودوافع. إنّ عملية التفكير بالصور هي أحد جوانب الوعي، وهي خاصية وجوديّة إنسانيّة، فهذا التفكير موجود في البعد البصري، وكذلك في البعد اللفظي من العمل الفني والوعي، وفي كل ما قُصد منه أن يكون أيقونيا أو حواريا يتم التعبير عنه من خلال الصورة.
ظهر مفهوم **الحواريّة البصريّة**، عندما كان بروس شابيرو B.Shapiro، المؤلّف والمخرج المعاصر، يتحدث عن أساسيات الأداء في الدراما المسرحية، طرح مفهوم الأيقونية iconic باعتباره تعريفا "يصف تلك الصور العقلية المشتركة التي تنشأ بين المؤيدين والمشاهدين داخل قاعات المسارح. وقد قال إنّه توصل إلى هذا المفهوم عندما بدأ يركز تفكيره، محاولا حل المعضلات الأساسية التي تنشأ خلال الأداء المسرحي، وخاصة ما يتعلق منها بذلك الصراع الأصيل بين الدراما بوصفها نصا أدبيا لفظيا أو مكتوبا، وبين الحدث المسرحي البصري25. وفي عام 1988 أثناء مشاركته في ندوة مع الناقد المعروف وج ت ميتشيل W.J.T.Mitchell، صاحب كتاب علم الأيقونات: الصّور، النص، الأيديولوجيا'

Iconology: Image,Text.Ideology ناقش شابيرو ماهية عملية الحوار البصري وباعتباره حلا للصراع اللفظي-البصري أو الصراع الأدبي- المسرحي، وبوصفه أيضا مصطلحا يعرف بماهيته العلاقة التفاعلية التي تنشأ داخل الممثل، نفسه فتساهم في مقدرته على الربط بين النص الأدبي وأدائه الفعلي لهذا النص على المسرح من خلال تصوره للصورة المدركة-موضوع- التي يعالجها هذا النص. والحواريّة البصريّة كذلك علاقة تفاعليّة بين الممثلين فيما بينهم، من خلال تصور كل منهم للآخر من جهة، وبين الممثلين والجمهور من جهة أخرى.

كما أنها ليست أسلوبا للأداء فقط، ولكنّها "عملية تساعد على تجديد الأداء، كما أنّها تساعد هؤلاء الممثلين، والمتلقين أيضا على الوصول إلى اكتشافات جديدة حول المسرحية التي تؤدى أو حول أي أداء إنساني يتم في أي مجال آخر أيا ما كانت غرابته مادام يبدو صادقا. إنّ الأداء-كما يقول شابيرو- هو جانب أساسي ملازم للطبيعة البشرية، وهو يشتمل كذلك على جوانب عدّة من الوعي، وتمتد جذوره إلى جوانب متنوعة من المخ لم نصل-بعد-إلى فهمها بشكل كافٍ"26 .

وبالاتجاه إلى مجال نظرية الأدب فيعني هذا المفهوم-حوارية التفكير بالصور-حدوث تفكير بالصور في الأشكال غير البصرية من أنماط التعبير. ويعتبر هذا التوظيف اللساني أو الأدبي له علاقة الصلة بالصراع التقليدي بين الشعر وفن التصوير، أو بين أشكال التمثيل اللغوية والبصرية في الفنون. وهكذا فإن مصطلح الحوارية البصرية من الممكن أن يشير أيضا إلى "عملية الاستخدام للغة في التمثيلات البصرية، ونجد مثالا على ذلك أيضا فيما يسمى بالقصائد البصرية، حيث نجد بعض قصائد أبولينير- مثلا- وقد رسمت في شكل يمثل أو يشير إلى شيء واقعي معين. ومن الأمثلة على ذلك أيضا استخدام العنوان والبطاقات الحوارية في الأفلام الصامتة، وقد كانت هذه البطاقات جيدة الصياغة من الناحيّة اللفظية، وشديدة الإضاءة من الناحيّة البصرية"27[1] . وكلما صاحبت اللغة العمل الفني اللساني بالصور، أو بتعزيز حضور في العمل الفني البصري، باللغة يحضر التفكير بالصور فإنّ الحوارية البصرية تكون موجودة.

فالحوارية البصرية هي من المفاهيم القابلة للامتداد والتطبيق على أعمال فنيّة وإنسانيّة متعدّدة كـ: السينما، وبرامج التلفزيون، والإذاعة، وفنون التصوير، والنحت، والعمارة، والإعلانات، وحتى ألعاب الفيديو جيم وغيرها. ومنه "يحول مفهوم الحوارية البصرية الاهتمام بمشكلة المعنى من النص إلى القارئ، أي من المبدع إلى المتلقي، ذلك الذي تكون من أهم مسؤولياته أن ينتج المعنى الخاص به من خلال علاقة حوارية بصرية خاصة وخصبة مع العمل الفني، مما يؤكّد أهميّة المشاركة والحوار الفعال الذين يؤكد مسرح الصور عليها بدرجة واضحة"28.